

المفكر الإستراتيجي الهندي كاوتيليا

المخلص:

كاوتيليا هو المستشار الأساسي للملك الهندي شندرقبطا مريا (293 ق م-317

م)، الذي وحد لأول مرة شبه القارة الهندية في إمبراطورية موحدة. كتب كاوتيليا الأرساسترا في حوالي 300 ق م والذي يمكن ان نعتبره علم سياسة يهدف لتعليم الملك الحكيم كيفية الحكم. في هذا العمل، كاوتيليا قدم عرضا شاملا وساحرا حول الحرب والدبلوماسية، بما في ذلك رغبته في ان يصبح ملكه امبراطور عالمي، تحليله للممالك التي هي حليفة بالطبيعة والذين هم أعداء حتميين، رغبته في عقد معاهدات ليس من المستبعد أن تخترق، مذهبه في الحرب الصامتة أو حرب الإغتيال ضد ملك جاهل، موافقته على العملاء السريين الذين يقتلون قادة العدو ويبذرون النزاع بينهم، نظرتة للمرأة كسلاح في الحرب، استعمال الدين والخرافة لتعزيز قواته و إحباط قوات جنود العدو، نشر التضليل ومعالجته الإنسانية للجنود والرعايا المستولى عليهم.

أرثساسترا كاوتيليا من أشهر الكتب السياسية التي تركها لنا العالم القديم وهذا ما اعترف به ماكس ويبر بقوله "حقا راديكالية ميكيافيلية في الإحساس الشعبي لتلك الكلمة" هذا ما قاله ويبر في محاضرتة المشهورة " السياسة كمهنة". من خلال هذه الورقة سأركز على دراسة فكر كاوتيليا والذي جاء متزامنا مع فكر سان تزو الصيني، كاوتيليا أيضا برز كمفكر استراتيجي خلال فترة حروب مستمرة دفعته الى كتابة مؤلفه الكلاسيكي القيم "ارثساسترا" والذي يمكن ترجمته ك"علم السياسة والإدارة" وهو يغطي مواضيع عديدة كالفلسفة السياسية- كيف ينبغي للحاكم أن يسير دولته بطريقة فعالة-، والقانون، والإدارة، و الإقتصاد وبدرجة أساسية العلاقات الدولية والفكر الاستراتيجي.

وعلى هذا الاساس سأناقش في هذه الورقة المواضيع الثلاثة التالية:

1 - الظروف التاريخية والسياسية خلال زمن كاوتيليا.

2 - فلسفة كاوتيليا حول الدولة.

3 - العلاقات الدولية والفكر الاستراتيجي لكوتيليا.

1. الظروف التاريخية والسياسية خلال زمن كاوتيليا:

كاوتيليا هو مهندس الانتصار الذي حققه شاندرقبطا ماريا على قوة "مقاطعة الناندا"

.حيث أنه و عبر حقبة كثيرة كانت الهند مكونة من عدة دويلات ضعيفة ومقسمة وغير مركزية

والتي اظهرت قلة استقرار, هذه الممالك الضعيفة منعت بروز امبراطورية موحدة وقوية.

مباشرة بعد موت الكسندر في 323 ق م شندر قبطا و كاوتيليا بدءا في توحيدهما للهند

وإيقاف الاحتلال الإغريقي وكنتيجة لذلك شندر قبطا اعتبر أول من وحد الهند وأول إمبراطور

هندي, العديد من انتصاراته ترجع بالأساس الى رئيس وزراءه مستشاره كاوتيليا.

الإمبراطورية الماريانية التي أسسها شندر قبطا واستمرت مع ابنه بندوسارة (Bindusara) (-268

293) الذي استمر كاوتيليا مستشارا له ولإبنه أشوكا (Ashoka) (268-232) ق م.بتعداد قدره

50 مليون شخص الامبراطورية الماريانية توسعت اكثر من الامبراطورية الماغولية في

الهند,حيث تمددت الى الحدود الفارسية ومن افغانستان الى البنغال.

بعد المعانات التي شهدتها أشوكا خلال فتوحاته لامبراطورية كالينقا, أشوكا تحول الى البوذية

واللاعنف, حيث أعلن انه في المستقبل سيحتل عن طريق القيم والروحانيات.السلالة الماريانية

تحت حكم أشوكا كانت المسؤولة عن إنتشار القيم البوذية حول مجمل شرق اسيا والجنوب الشرقي

لاسيا.

2. فلسفة الدولة عند كاوتيليا:

النجاح الذي حققه شندرقبطا يرجع بالاساس الى مستشاره كاوتيليا، بالإضافة الى فلسفة الحرب التي تضمنها كتاب كاوتيليا "ارثساstra" فقد تضمن أيضا تنظيم الحكومة واستراتيجيات سياسية وإدارية. الفلسفة السياسية لكوتيليا أدت بالإمبراطورية الماريانية الى مركزية عالية وسلم إداري للحكم مدعوم بعدد كبير من البيروقراطيين مع تجميع منتظم للضرائب، انتعاش التجارة وفنون صناعية والتعدين و الإحصائيات الحيوية، بالإضافة الى رفاهية السياح الاجانب وبناء الاماكن العمومية مثل الاسواق والمعابد، كما ان الإمبراطورية كانت تقوم على جيش كبير مزود بجهاز استخبارات محترف. الإمبراطورية كانت مقسمة الى محافظات ومناطق وارياف يتم تسييرها من طرف أعوان معينين مركزيا والذين ضاعفوا مجهوداتهم في خدمة السلطة المركزية.

مثل ميكيافيلي فصل كاوتيليا الفكر السياسي عن الإعتبارات الدينية، فعلم السياسة عند كاوتيليا هو لدراسة ما هو موجود وليس ما ينبغي ان يكون. حسب بلوندا (Blondel 1976) فإن هذا التحليل الواقعي الذي قدمه كاوتيليا يعتبر الدفعة الاولى لعلم السياسة وابعاده عن المجال الثيولوجي والى المجال العلمي القائم على التحليل و الإحصاء.

الـ"ارثساstra" تناول جوانب مادية عالية واستبعاد الجوانب القيمية. فقد أُلْف بهدف تطبيقي لتبيان كيف يجب ان يسير الحكم.

حدد كاوتيليا ستة (06) عوامل للقوة وهي: طبيعة الحاكم ذاته، ووزراءه، شعبه ودولته، ثرواته، جيشه وحلفاؤه. هدف الارثساstra هو كيف يتم تنمية نوعية هذه العناصر وكيفية تقويضها لدى العدو.

في كتابه ارثساسترا كاوتيليا وصف النظام السياسي حيث هناك العديد من الدول الصغيرة وكل واحدة إما عدوة أو حليفة للأخرى. بالنظر الى الدور الذي حدده كاوتيليا للملك تحت فصل خاص عنونه بـ"قواعد للملك" قال فيه "إذا كان الملك نشيط فإن أتباعه يصبحون مثله متبعين لنموذجه، وإذا كان متكاسل ومتنازل فإن أتباعه يكونون مثله متخاذلين ويتلفون انجازاته..." لذلك من واجب الملك تفادي المجاعة والفياضانات والابوئة وعليه أيضا حماية الفلاحة والصناعة والتعدين وحماية الايتام وكبار السن والمرضى والفقراء والتحكم في الجريمة بمساعدة الجواسيس وحل النزاعات قانونيا.

3. العلاقات الدولية والحرب عند كاوتيليا:

مثل سان تزو كاوتيليا أيضا أكد على حيوية الدراسة العلمية لعلاقات القوة بين الدول، وأكد أن الذي يعرف مبادئ السياسية -من خلال الارثساسترا- يستطيع أن يسيطر ويحتل العالم ويمكن تلخيص أهم أفكاره كالتالي:

- الهدف الأمبريالي وراء العمل الدبلوماسي
- الحرب حالة طبيعية في العلاقات الدولية
- المعاهدات ماهي إلا اتفاقيات مرحلية لتدمير العدو القريب.
- نظرية "المندلا" (Mandala) في العلاقات الدولية.
- النظرة الواقعية للعلاقات الدولية
- الاستراتيجيات التي ينبغي أن يتبعها الإمبراطور العالمي.

أ. الهدف الامبريالي وراء العمل الدبلوماسي:

بوجود نظام دولي فوضوي المبدأ الأساسي للسياسة الخارجية الدولية هو المصلحة الذاتية هذا ما أكده كاوتيليا في كتابه الارثساسترا، فهو لا يؤمن بان الدول تتصرف بشكل مثالي، فبالنسبة لكاوتيليا فإن كل الدبلوماسيين هم جواسيس حيويين لدولهم بصفة دبلوماسية "بقاتلون بأسلحة دبلوماسية". كما ان هذه الفكرة هي فكرة أساسية عند ميكيا فيلي في كتابه "الامير" أين الغاية تبرر الوسيلة.

ب. الحرب حالة طبيعية في العلاقات الدولية:

عاش كاوتيليا في فترة الدول المتحاربة أين يجب على الدولة أن تأخذ إحتياطات الحرب وتكون دائما متحضرة لها، فقد عاش في فترة على الدولة أن تحتل أو تعاني من الاحتلال. كاوتيليا يعتبر منظر حرب من الدرجة الأولى فحسب روجر باو سك (Roger boesche) كاوتيليا لم يقل لنفسه "حضر للحرب ولكن تمنى السلم" لكن بدلا من ذلك "حضر للحرب وخطط للإحتلال"

صناعة الحرب هي عبارة عن واحدة من الأدوات للوصول إلى الهيمنة، الأدوات الأخرى مثل رشاوى الصداقة توظف ضد الملوك الضعفاء. الأداة الأخرى التي توظف ضد الملوك الأقوياء هي زرع الانشقاقات والإجبار وإستعمال القوة. بالنسبة لكاوتيليا الفرق بين الأداة والسياسات هو إن الاداة يمكن استعمالها ضد المحليين كما هو الحال ضد المعارضين الاجانب بينما السياسات يتم استعمالها ضد الدول الأخرى فقط.

ت. المعاهدات ماهي إلا اتفاقيات مرحلية لتدمير العدو القريب:

المعاهدات مهمة بالنسبة للدول ولكن ليست للسلم الدائم. الملك المثالي هو الذي ينظر لكل الدول كأعداء ولكن يجب عليه أن يقسم هؤلاء الأعداء إلى محاربين حاليين ومحاربين مستقبليين. هدف الاتفاقيات هو لتركيز القوة العسكرية لهزيمة الأعداء الحاليين.

ث. نظرية "المندلا" (Mandala) في العلاقات الدولية:

طور كاوتيليا نظرية "المندلا" في العلاقات الدولية والتي تقوم على اعتبار الدولة المجاورة عدوة طبيعية وعدو العدو صديق فقد قال: " الدولة التي معها حدود مشتركة عدوة بالطبيعة"

ج. النظرة الواقعية للعلاقات الدولية:

بالنظر للفكر الإمبراطوري وفكر الهيمنة الذي جاء به كاوتيليا فإنه يمكن اعتباره من الواقعيين الأوائل في العلاقات الدولية، فهو ينظر إلى وجود طبيعة المتصارعة في العلاقات الدولية، كل دولة تسعى للحفاظ على وجودها في نظام دولي فوضوي، إنه من الطبيعي أن الدول تتفاعل فيما بينها عن طريق " القوة والصراع".

ح. الاستراتيجيات التي ينبغي أن يتبعها الإمبراطور العالمي:

عن طريق استراتيجية واسعة في كتابه ارثاسترا، أكد كاوتيليا انه على الإمبراطور أن يأخذ بالاعتبار بعض المبادئ:

- 1- ينبغي على الملك أن يحاول السيطرة بالوسائل الغير عسكرية (الرشوة،الفتنة،الدعاية..الخ)
- 2- لا ينبغي الهجوم على أي دولة اذا كانت عناصر القوة الستة(06) مذبذبة.
- 3- أكد كاوتيليا أن الحرب المفتوحة: "هي الافضل ولكنه يريد استعمال أي نوع من الحرب من شأنها توسيع حدود الامبراطورية" حتى من خلال توظيف النساء الجميلات والشابات كأسلحة.
- 4- "الحرب الصامتة" أهم أفكار كاوتيليا وهو أن يعمل الملك مع وزرائه وأعدائه السريين وجواسيسه وشعبه ككتلة واحدة لاحباط معنويات الأعداء.

في النهاية اتينا على اهم الافكار الاستراتيجية لكوتيليا من خلال كتابه ارثاسترا الذي يحتوي معاني واقعية قوية. حقيقة من المدهش أن نجد فكر استراتيجي برز منذ القدم ولا يزال قابل للتطبيق في زمننا

الحالي في العلاقات الدولية كصراع القوة والحرب والمصلحة الوطنية وميزان القوة والمعضلة الأمنية
والحكومة العالمية... الخ